

من يعرف الفريضة

قصة بقلم عبد الرحمن الربيعي

(يا للأسف ! لماذا هذه الاشياء وليس غيرها ؟)

— بو مارشيه عن (الاحمر والاسود) —

— ١ —

في الوجدتين نمش خفيف . عندما نمتد اليه الانامل قد تخدشه . ناعم كهمة . اما في العينين فبريق نادر . من أتى بهذه الدفقة من العطر والنور لهذا الشعر المنسدل على الكتفين ؟ لهذه الخصلة الطائفة المترنحة التي تواصل اليد الصغيرة دفعها لتنتظم في صفها ؟

تبتسم له . يبتسم لها . انثيث ، والاقدام المهرولة ، الباصات الكبيرة . وكاسحات المطر من زجاج السيارات ، الناس والمظلات ، الذين ينعمون بالرفقة . والوحيدون ، والمهجورون ، وقطة صغيرة تنوس امام مدخل زجاجي لمطعم منزو .

— ٢ —

— اتعرف تلال الرمل ؟ والوجوه المعفرة ؟ والاصوات المنسحقة الدائبة ؟ اتعرف السخونة التي تعطل اندماغ واغاني « البوذية » ونواح النساء المتشحات بعباءات سوداء ؟ اتعرف الازقة الزنخة والصبية الحفاة والدجاج والبيرك والفائظ والانين والجدران الطينية وعيون الامهات ؟

— ٣ —

اتركك للزنايق ، واحتضار آياسمين . اتركك للفرح القادم والنيات الحسنة ، والبحث عن الاشرعة والمجاديف . اتركك للعطب والحلم والمستحيل . اتركك للخبل ، والسفر والحنين . ثم اعود واجدك كما تركتك ذات يوم . اأمل سماوات عينيك . اخ ، من هي تلك الجزيرة المترامية ؟ واين المواقع والبقايا ؟ من يبقى او يزاح ؟ من يلتمع او يخبو ؟ من يفني ؟ ومن يتدثر بالصمت والبرود ؟

— ٤ —

هبت نسمة باردة فتلفعت بمعطفها جيدا ، وخبأت عنقها الوردي في ذلك الدفء ، وشع من القماش وجهها المنمش . وبرقت فيه عينها الخضراوان .

ابتسم لها . اغدق عليها بما تكدس في صدره من

يسمات قديمة لم تجد الوجه الذي يستحق ان يسفحها له بلا حساب . ثم قرصها من انفها فنطت بضحكة صافية . رنت في وحدة الليل وهداثه ثم دست يدها تحت كتفه .

كان راسخا ، ثقيلًا وطويلا كجدار تصعب زحزحته ثم استحثته ليمضي معها ويتحرك في الطريق . توقف مرات . امام اعلانات وكتابات على الجدران ، امام صلبان معقوفة ومطارف ومناجل . وتصفحا وجوها متعددة الجنسيات يحملها الليل والتعب الى فنادقها .

— اشتهي ان اكل الآيس كريم .
— والبرد ؟

— لا تخف ، سيكون هناك تعادل بين برد الخارج وبرد الاعماق . هكذا رد عليّ اصدقائي السوفييت عندما استضافوني في موسكو قبل عامين .

واخذًا لطفان « الآيس كريم » وهما امام واجهة مخزن لبيع الملابس النسائية الداخلية . وقد وزعت ما بين واجهة العرض وارضيته . فتبدو وكأن امرأة خلعتها بسرعة لتتضم مع من تحب في مخدع حان .

قرّب فمه من اذنها ثم طوقها بذراعه . الملابس وردية وسوداء . حمالات صدر وكورسيهات . ونساء عاريات بأوضاع رياضية تظهر جمال الموديلات . اندست تحت كتفه منتشية من امتداد قامته . ولسانها ما زال يطلع « الآيس كريم » .

— انظر ما اجمل هذه الصورة !

— يبدو انها الرد على وليمة الجنس والاشتهاء هذه ؟

الصورة :

ثلاثة اطفال . احدهم امسك بناي وآخر ببوق وثالث باكورديون ، وكانوا يلوون اجسادهم مع ايقاع اللحن الذي تبشه آلاتهم الموسيقية . في وجوههم حبور نادر . ومن حولهم تطايرت بالونات ملونة . رسمت عليها وجوه اطفال وحيوانات وزهور ملونة .

— انها جميلة فعلا ، لكن حبورهم لم اعرفه يوما

— ولا أنا .

– لكن ضعف بصري لا يجعلني اتمتع بجمالها .
– أتريد ان اصفها لك ؟
– لن تصلي اليها . التمتع غوص واكتشاف
ومعاقبة .

لو حدثوني عنك عامين . وملأوا تي قاموسا بكل
كلمات السحر والجمال لما أستطاعت أن تفنيني عنك .
عن روعة اكتشافك التدريجي . امسك بيدك ، واقبل
شفتيك وعينيك ، اراك وأنت بالمعطف مقرورة ترتجفين ،
ثم وأنت في الفراش عارية نفحين رغبة وعطاء . اي وصف
يكون بديلا لي عن هذه الحياة ؟
وازدادت التصاقا وتشبثا به . وعندما انتهت من
للع « الأيس كريم » اخذت تفرك يديها ببعضهما لتجلب
لهما الدفاء .

ثم نظ وجهها المشع وهي تتساءل :

– وبعد ، الى أين ؟

– لذي في الفندق زجاجة ويسكي ، ما رأيك ان
نحملها ونعود الى شقتك ؟

وأمسك كل منهما بيد صاحبه وراحا يهروا لان
باتجاه الفندق كمجنونين خليين ، لن تهمهما عناوين
الصحف ، ولا اقراج السكارى والمتسكعين ، ولا عيون
السائحات اليابانيات التي تتأملهما بابتسام من وراء
زجاج المقهى .

– ٥ –

رجل بطرطور على رأسه . وجهه يبتسم . وثمة جبل
طويل يسير عليه بخفة . كان يمد ذراعيه الى جانبيه
باستقامة ليوازن خطواته على ذلك الجبل . يميل الى
هذا الجانب تارة والى ذاك تارة اخرى ، ثم سرعان ما
يستعيد توازنه ويواصل الخطو . بينه وبين الارض قرابة
الخمسة امتار .

– أن تشبهه بالحياة هو الذي يجعله يجتاز التجربة
بنجاح .

– وقد يكون العكس ؟

– انه يكرر اللعبة كل ليلة ربما منذ سنوات ، هذا
عمله الوحيد ، وهذا مؤهله في حياته . وان شاخ
سيحولونه الى عمل آخر ضمن حدود السيرك ايضا .
ربما جعلوه حامل سلم او سائسا في الاسطبل او
مربيا للقروذ .

تطفأ الاضواء بعد ان يؤدي الرجل تمرينه بنجاح ،
تصفيق خلي من الجمهور . يعتلق الضوء في جانب آخر
من الساحة الدائرية . ويظهر قفص حديدي كبير ، فيه
سلام وبراميل كبيرة وجدوع اشجار . وامرأة عارية الا
من مابوه ذي قطعتين ، قماشه يلتصق مع تالأؤ المصايح
في الساحة . المرأة تمسك بيدها سوطا وجسدها رقيق
مثل غيمة بيضاء .

وعلى جانب القفص وقف رجل امسك بيده آلة تشبه
البندقية ، في نهايتها سهم . فتح الباب وتدقت مجموعة

من الاسود . كانت تزار وتندافع من اجل ان نجد لها مكانا
في انفص . تتوزع فوق البراميل والسلام وجدوع
الاشجار . المرأة تصفها بانسوط مع صيحة امر تطلقها
حجرتها الناعمة ليأخذ كل منها مكانه بعيدا عن الآخر .
الاسود تزار نم تنكس رؤوسها مدعنة لصفعة
السوط . العيون متسدودة الى المنظر . يتمرد احد الاسود
ويرفع يده مقاوما صفعة السوط ثم يجلس على قائمته
متهيئا لتوثب باتجاه المرأة . يصوب اليه الرجل بندقيته ثم
يطلق السهم . يمرق السهم بخفة ثم يستقر في كتف
الاسد . يتسرب الخدر الى عروقه فيدير رأسه يمينا
وشمالا كالمستنجد نم يبرك وينكفيء على وجهه .

– ٦ –

الاسود والنساء . البهلوانات والقسرود . وانت
تديرين مقود سيارتك . تشعلين انوارها لتتعرفني على
طريقك وسط برك المياه التي خلفها المطر . تدفعين
سبابتك لتحسني وضع نظارتك الطبية وترددين :
– كان الطبيب غيبا . لقد اعطاني نظارة تحتاج انى
رأسين مثل رأسي حتى تستقر عليه تماما .
وتضيف :

– لولاها لربما خلت الجدران طرقا سمحة . كل هذا
بسبب جنون القراءة والكتابة ، قف ، من دلنا على هذا
الجنون ، امي تطلق علي لقب العضو العائب في جسم
العائلة . يا تلمسكينة ! لولا هذا لما اكتشفتكم ايها العرب
الرائعون ، احببتكم وتعلمت لغتكم . ثم قرأت تاريخكم
وادبكم وملأت مجلات الاستشراق في دراساتي عنكم ،
كتبت حتى عن شعرائكم المغمورين ، وربما اولئك الذين
لا تعترفون بهم ايضا ، ثم ها انا معك اخيرا . أليس هذا
جنيا لفرس جنوني ؟

– من منا السعيد في ذلك ؟

وتهز كتفيها وهي تتحاشى سيارة مرقت بمحاذاتها
تماما . وتقول :

– كلانا . اعطيتني بقدر ما اخذت مني .

– وهل نحن نبحث في حساب الربح والخسارة من
وراء كل هذا ؟

– ظننت انك قد فهمتني ؟

– اتشكين في ذلك ؟

– لا ، ولكننا احيانا بحاجة انى الايضاحات
الصغيرة . اسمع ، انا معك لانني مقتنعة بك . مارست
معك الحب بكل رغبتني ، تحدثت معك ، كتبت لك رسائل
غارقة في السخف والجنون ، وتمنيت ان تكون معي دوما ،
ولكنني قد أنسف كل هذا في لحظات . حياتي لم اخضعها
الى مراجعات ، تركتها تمضي هكذا . تزوجت مرة .
وعشت مع رجل تسعة شهور ثم امسكت به من اذنه
وركفته على قفاه ومن يومها لم ار وجهه . مارست الحب
مع رجال لم اتق بهم ثائية ، سكرت ، سافرت ، نمت في
الشارع ، جمعت ، ولكن حياتي كانت تفتني وتمتلئ دائما .

يتحسس اجزاء التمثال بأطراف انامله . وكان يخبيء اندهاشه ولا اقتناعه . شيء اثنىه بالقيثارة الكيسرة الخالية من الاوتار يجثم على قاعدة عالية ، لها رؤوس مستديرة تحيلها الى ما يشبه الزهرة . وثمة اسطوانة تلتصق بقلب القيثارة وقد حفرت قاعدتها وامتد منها تجويف ليس بالعميق . كما وضعت قنينة كبيرة على مبعده لا يربطها بقاعدة التمثال الا جسر من الحجر الصفيلى ، وتمه جسر اخر يربط ما بين الزجاجاة والاسطوانة .

يظل يربت بيده ، ويتطلع متمعنا . تم يخني رأسه ويدور مرات ضاربا براحه يده على هذه الهيئة الحجرية الضخمة التي لا بد وان انفق الفنان معها عدة شهور وهو يفرس ازميله في كتلتها انصماء محاولا ان يستخرج منها هذا الشكل اندي لا يدل على معنى مميز .

(كان طريق تنسيط انقن الحديث - منذ عهد سيزان الى الفن التحليلي للمكعبات - طريقا مستقيما يؤدي الى التجريد . ومنذ عهد التصوير الواقعي للفنان سيزان حتى ظهور مسطحات ووجوه المكعبات للفن التحليلي للمكعبات ، تقدم التصوير احديث خطوة نحو التجريد . على ان الفنانين عندما بلغوا نقطة ما في سبيل التجريد ، توقف المنمرسون منهم في فن المكعبات وغيروا اتجاههم نحو الفن التجريدي) .

- عن كتاب « حول الفن الحديث »

لجورج فلانجان -

امتلا جسده بالعرق فمد يده الى جيبه واستخرج منديله (عادة يحتفظ بها منذ السنوات الاولى له في احدي القرى ، وحيث كان المنديل يشكل جزءا من انافة الرجل . والذين يبالفون في اناقتهم كانوا يضعون المناديل في صدور جاكتاتهم ، وباوضاع مختلفة ايضا . وغالبا ما يختارون لون المنديل بلون ربطة العنق) . واخذ يمسح العرق المتفصد على جبينه وعنقه (كان ايضا في السابق يضع المنديل تحت ياقة القميص حتى يمتص العرق في الايام الساخنة ولا يجعل ياقة القميص تتسخ بسرعة وخاصة اذا كانت بيضاء) .

- اتريد ان احديثك عن هذا التمثال ؟

- الاتحسبن بان التجربة فيه باهتة فوقية ؟

- ربما لا ، وربما نعم ايضا .

- وما المبرر في هذه احيرة ؟

- هذا موضوع حديثي معك الليلة . لقد تطارحنا

الغرام بما فيه الكفاية ، ونحدثنا عن العسرب واشكالات واقهم وعن ذلك الشاعر الذي مات بكبرياء ، وشربنا زجاجة الويسكي التي جئت بها من الطائرة بعشر نمنا الاصلي و . . .

- كفى .

وضع يده على فمها . وبعد ان كفت عن الكلام رفع

يده ثم قبلها وضمها الى صدره بحب .

من المنطاد الى الطائرة . من الاساطير الراسخة التي يعرفها الانباء والاجداد ، اكشف لك عن سر خباته نجمة منلثة او خرافة في فسم منجم عجوز . فيتاغورس وارسطو . بطليموس والكلبة لايبكا ، القرده والرجال . العيون والانوف ، الصمت والسدوي ، الصينيون واليونانيون والهنود ، العرب والفرس ، ليوناردو دافنشي وجواد سليم ، البنزين وبخار الماء ، الالذاب والفرح الخفي ، الامتاع والمؤانسة .

رجل وجل يضع قدمه في تلك المركبة المهمة ، يحمل جسده تم تصطفق ابواب الزنازين . أنت والفضاء والملائكة والنجوم ، انت والشمس والقمر ، الاسرار والحكايا ، الخفاء والعلن . تبعد عدسة التصوير وتتطلع بعينيك المجردتين . انها رحلة الكشوف والانهار ، ليبطل التنبؤ ، وتحال الاسرار الخفية الى وقائع مدونة في كراريس . التهلل في نك الوجوه واتبعون . الابتعاد والاختراق . هل من المجدي ان تقول وداعا ؟

يده على صدغه . تستقر تارة وتنفلت تارة اخرى . تقرصه نارة ثم تدلكه . امامه زجاجة ماء فارغة . امسك بها قبل لحظات وكرعها الى آخرها .

ما زال الصداع وما زالت الحمى . ينهض ويدور في الغرفة الموصدة ، يدخل التواليت . ثم يدس اصبعه في فمه ويحاول ان يتقيأ . لا شيء غير الماء يرفع رأسه الى اعلى . رأس « الدش » بثقوبه انفاغرة يحقق فيه . يخلع ثيابه بتمهل ويرميها في جوف الغرفة قطعة قطعة . يفتح الصنبور فيتدفق الماء من ثقب « الدش » باردا ولذيذا .

بعد زمن يسحب قدميه الحافيتين . الماء يتصب من جسده . يقف امام مرآة الخزانة ويتملى كيانه . يفتح عينيه جيدا ليتعرف على كل عضو فيه . ثمة حيوان اسطوري يلتصق بمرآة الخزانة . يقتحم الجدران الصماء والمصعد والناس والسرر والممرات ليلتصق في جدران هذا المنفى العليل .

- ما الذي جاء بك ؟

يطلق هذه الصرخة الشرسة المستفيثة والمنسدة كذلك . ثم يضحك ويضحك . يرتج الباب وزجاج النافذة وذراع « الدش » ، ثم ينتبه اتي ان عليه ان يبكي بدل هذا الضحك اتراء . يحاول ذلك . يستجدي الدمع والنحيب ، الجبال والحفر ، تدلف خيول مطهمة . وفرسان ملثمون . زغاريد نسوة . وهياج مهزومين ، اطفال وشيوخ ، عمي وصم وبكم . اعين وافواه ، كلاب ، قرده . واطباق طائرة . نشيج وصبر طويل .

كان مرميا في جوف الغرفة ، ملتفا حول نفسه . محتما وخانعا . الماء يغطي الغرفة . يطفح من النافذة وشقوق الباب . يحاول ان يحرك يديه ليعوم قليلا لكن الشلل يقتنصهما فيظل متخثرا في القعر .

بغداد